

الإسراء والمعراج

الأستاذ محمد بن زعمية

جامعة البليدة

السفراء و أعضاء السلك الدبلوماسي،
و السادة المشايخ و العلماء و القراء،
و الإطارات و الإخوة الفضلاء .

حياكم الله جميعا و أحيا بكم بلاد
الإسلام، و جعل منكم النور الذي من
بين يديها و من خلفها.

– الحمد لله سبحانه و تعالى على أن
جمع للناس في هذه الليلة الشرف بأبعاده
الثلاثة:

1- شرف المكان : هو هذا المسجد
الكبير أو الجامع الأعظم كما كان يسمى
من قبل، والجلوس في بيت الله شرف
عظيم و خير عميم خاصة إذا كان ذلك
المسجد مر به الجمع الغفير من الركع
"السجود، و درس فيه الصفوة من العلماء
و مضى عليه دهر كان منارة إشعاع
حتى جاءه ليل الاستعمار، و مع ذلك لم
تنطفئ جذوته.

كلمة ألقاها الأستاذ: محمد بن زعمية
بمناسبة الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج

يوم الجمعة 26 رجب الموافق 10
أوت 2007م بالجامع الكبير

بسم الله الرحمن الرحيم و الحمد
لله رب العالمين و الصلاة و السلام على
المبعوث رحمة و هداية للعالمين، الحمد
لله الذي هدانا للإيمان و زيننه في قلوبنا.
سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم
القرون الأولى.

أخرجت هذا العقل من ظلماته
و هديته النور المبين سبيلا
أرسلت موسى بالتوراة منذرا
و ابن البتول فقرأ الإنجيل
و فجرت ينبوع البيان محمدا
فسقى الحديث و ناول التنزيل
– أيها الجمع الكريم، أصحاب المعالي
السادة الوزراء، أصحاب السعادة السادة

و خلفا إلا من شذ من الطوائف الضالة على وقوع الإسراء و المعراج، و أنه آية ظاهرة و معجزة باهرة أيد الله بها نبينا عليه الصلاة و السلام ليزداد الذين آمنوا إيماناً، و يزداد الكافرون الذين في قلوبهم مرض رجساً إلى رجسهم .

- و لا أريد أن أذكر قصة الإسراء و المعراج كاملة، فهذه أصبحت بحمد الله مشتهرة و معروفة عند أكثر الناس، ولكن أريد أن أقف معكم عند بعض المعاني و المغازي لهذا الحدث العظيم.

المعنى الأول :

أن مقام العبودية لله سبحانه و تعالى هو أشرف مقامات الإنسان، فيه يتنافس المتنافسون، و إليه يتطلع المتطلعون، صحيح أن كلمة العبودية في عرف البشر تعني الإذلال و الاسترقاق، و استغلال السيد لجهود عبده، لكن العبودية في عرف الشرع منحة و عطاء من السيد و هو الله لعبده .

• انظروا حين يمتن الله على رسوله ﷺ في أشرف المنازل يصفه بالعبودية لا بالنبوة و لا بالرسالة.

2- شرف الحضور : الذين هم رواد بيوت الله ، الذين وصفهم الله بقول ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ التوبة : ١٠٨ .

﴿يَسِيحُ لَهُ فِيهَا بِالْأَغْدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾
النور : ٣٦ .

و خاصة إذا كان هؤلاء المجتمعون من السادة أصحاب الرأي و التوجيه الذين هم المحرك لهذه الأمة و المفجر لطاقتها .

3- شرف المناسبة : و هي ذكرى الإسراء و المعراج . و المراد بالإسراء تلك الرحلة الأرضية من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وقد خلد الله ذكرها في القرآن الكريم بقوله ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ الإسراء : ١ .

و المراد بالمعراج الرحلة السماوية التي بدايتها صخرة بيت المقدس و نهايتها سدرة المنتهى، فوق السماء السابعة، و قد ثبت المعراج في الكتاب العزيز في سورة النجم، و في الأحاديث من الصحيحين عن جمع كبير من الصحابة رضي الله عنهم، و اتفقت الأمة الإسلامية سلفاً

بَشَرًا رَسُولًا ﴿الإسراء: ٩٣﴾

و لذلك كان الإسراء جزءا من ربك
عطاء حسابا للنبي ﷺ، فهو خير من عبد
الله و خير من دعا إلى الله على بصيرة،
و أحب من جاهد لتكون كلمة الله هي
العليا، و أفضل من صبر في جنب الله
حين أودى، و كما لا يخفى عليكم أن
المؤرخين و المحدثين متفقون على أن
الإسراء و المعراج كان قبل الهجرة بقليل
وهي الفترة الحالكة في حياة النبي ﷺ
حتى سمي ذلك العام بعام الحزن، فقد
فيه النبي ﷺ من كان يؤزره من الداخل،
ومن الخارج، ماتت خديجة رضي الله
عنها، و مات عمه أبو طالب، فتمكن
منه الكفار حتى اضطر إلى أن يخرج إلى
الطائف لعله يجد النصير، لكنه رد ردا
منكرا، و لم يستطع الرجوع إلى مكة إلا
في جوار رجل من المشركين وهو المطعم
بن عدي، ففي هذه الفترة جاءه الإسراء
و المعراج و كأن الله تعالى يقول له: إذا
تنكر لك أهل الأرض فلا ضير عليك،
فها هي السماء تفتح لك الأبواب،
و الأنبياء يقدمون لك الترحاب .

• ففي مقام الوحي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ ﴿الكهف: ١﴾

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ﴿النجم: ١٠﴾
﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ
الْفُرْقَانِ﴾ ﴿الأنفال: ٤١﴾

وفي مقام الدعوة ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ
يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ ﴿الجن: ١٩﴾

و في مقام الإسراء ﴿سُبْحَنَ الَّذِي
أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ ﴿الإسراء: ١﴾

و هذا المعنى تكرر كثيرا في هذه
السورة ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ
كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿الإسراء: ٣﴾

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ
عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿الإسراء: ٥﴾

﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾
﴿الإسراء: ٥٣﴾ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ
عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ﴿الحجر: ٤٢﴾ بل تكرر
في السورة ما يشعر النبي ﷺ بعبوديته لله
﴿وَلَوْلَا أَن تَبَشِّرَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ
إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ﴿الإسراء: ٧٤﴾

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا

المسلمين ليصلوا إليه من أول يوم فهو قبله المسلمين الأولى، و هذا المكان الذي اختاره الله ليكون لنبيه واسطة بين رحلة الأرض ورحلة السماء، إليه انتهى الإسراء، ومنه كان المعراج وهو المكان الذي اكتسب حرمة الشرعية وقداسته الدينية من توجيهات الله ورسوله ﷺ .

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ ، و المسجد الأقصى » .

و روى أبو داود في سننه و ابن حبان في صحيحه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أهل بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر أو وجبت له الجنة » .

قال أبو داود يرحم الله وكيعا أحرم من بيت المقدس يعني إلى مكة، و قال ابن حبان : خرجت أم حكيم حتى أت بيت المقدس فأهلت منه بعمرة .

وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال :

• و في هذا درس لكل مسلم، أيا كان موقعه رئيسا أو مروؤسا، قائدا أو جنديا أن يضحى في سبيل الله، و ينتظر التكريم من الله عز وجل، لأن الله إذا أعطى أغنى و أقنى ، فأجره جزيل و ثوابه جميل، عنده حسن الثواب و عنده حسن المآب و من حرم الأجر من الله فهو المحروم .

حين سئل النبي ﷺ، كما في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري ؓ عن الرجل يقاتل شجاعة و يقاتل حمية و يقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

المعنى الثاني :

أيها السادة الأكارم أهمية المسجد الأقصى في حياة المسلمين .

• فهو مسجد، سمي في كتاب الله كذلك، و معلوم أن من قبلنا من الأمم ما كانوا يسمون معابدهم مساجد إنما هي صوامع و بيع و صلوات، فالله سبحانه و تعالى هو الذي سماه مسجدا، ووجه

«إن سليمان بن داود عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل خللاً ثلاثة. سأل الله عز وجل حكماً يصادف حكمه فأوتيته، وسأل الله عز وجل ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيته، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه، أن يخرج منه من خطيئته كيوم ولدته أمه» .

- وحينما أدرك المسلمون هذه الفضائل كانوا يتنافسون في شد الرحال إليه، بداية من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الذي شرفه الله بفتح بيت المقدس، وطرده أعادي الرومان الوثنيين عنها .

ولقد ضرب أسلافنا من بلاد المغرب والجزائر خصوصاً أمثلة رائعة في تعظيم بيت المقدس صلاة و حجا و جهادا ورباطا، وقد علمنا من أستاذنا الدكتور محمد عيسى أن الإمام حسن بن شعيب الملقب بالغوث دفين تلمسان وتلميذ العالم الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني كان من الذين جاهدوا ضد الصليبيين وقد قطعت يده هناك، ودفنت بالأرض المباركة، و كانت أوقاف الجزائريين و صدقاتهم ترصد باستمرار إلى بيت

المقدس و لهم هناك رواق يسمى رواق المغاربة، ولقد ظل أبناء الجزائر أوفياء لأسلافهم من هذا الطريق فلم ينسوا المسجد الأقصى، ولم ينسوا فلسطين حتى في الفترة التي كانوا فيها تحت الاستعمار الفرنسي، ونذكر في هذا ما قام به العلامة الإبراهيمي في الثورة الأولى سنة 1948م، جمع المال و جهز الرجال، حتى أن قال: للناس ليس لي من المال إلا هذه الكتب و منافعها ستكون في يد المجاهدين. بل إن الجزائريين لم تنسهم فرحة الاستقلال إخوانهم في فلسطين و رأوا أن استقلالهم يستحيل منقوصا مادامت فلسطين تحت الاحتلال .

ولاغرو أن نسمع من الرئيس الراحل هواري بومدين رحمه الله مقولة (نحن مع فلسطين ظالمة أو مظلومة) .

- وعلى أرض الجزائر كما تعلمون أيها الإخوة أعلنت الدولة الفلسطينية سنة 1988م، وفيها انعقد مؤتمر القدس العالمي هذه السنة 2007م، وفي مساجد القطر الجزائري جمع المال الوفير، وقدمت النساء من الحلي و المجوهرات، و قد سمعت أن امرأة كانت تبكي فرحا

و هذا يعطينا دلالة و إشارة إلى أن القرآن الكريم هذا الآية العظمى و المعجزة الكبرى لنبينا عليه الصلاة و السلام فينبغي للمسلمين أن يقدرُوا هذه النعمة حق قدرها و أن يعظموها بما يليق بها و ذلك :

1- بحفظ القرآن الكريم و تحفيظه
كما في البخاري من حديث عثمان بن عفان « خيركم من تعلم القرآن و علمه »
عن النبي ﷺ . و لذلك كان عبد الرحمن السلمي أحد علماء التابعين و القراء المشاهير يعلم القرآن و هو ابن السبعين سنة، و كان يقول هذا الحديث هو الذي أجلسني هذا المجلس .

و وزارة الشؤون الدينية والأوقاف و على رأسها معالي الوزير الدكتور بوعبد الله غلام الله مشكور في هذا العمل العظيم و قد حضرت بالأمس ملتقى وطنيا نظمته الوزارة لمعلمات القرآن و رأيت و سمعت ما أثلج الصدر و قرت به العين من تقدم في المستوى التعليمي للمدارس التحضيرية .

و هي تقدم أعلى هدية عندما أهداها زوجها إلى فلسطين .

- و في مساجدنا كذلك لا نكاد نجد خطيبا إلا و ذكر فلسطين و يذكر أهلها خاصة في هذه الأيام التي يمرون بها من فتنة داخلية، و إننا بهذه المناسبة نقول لإخواننا في فلسطين: لقد كنتم تضربون الأمثلة بالجزائر، حينما يقول لكم الناس اتركوا الكفاح لأن اليهود مضت عليهم هناك مدة طويلة فكنتم تقولون، إن فرنسا بقيت في الجزائر 130 سنة فما استيأس الجزائريون من الاستقلال، فاليوم اقتدوا بالجزائريين في أخوتهم و تعاطفهم حينما تدهمهم الأخطار، لقد ذابوا جميعا في جبهة واحدة حينما نادى منادي الجهاد، و حينما أطلت فتنة أخرى قام الجزائريون جميعا في صعيد واحد بقيادة الرئيس المصلح العظيم الذي أصلح بين أفراد الأمة، نسأل الله أن يصلح له دنياه و آخرته .

المعنى الثالث :

إن الإسراء ذكر في آية واحدة في القرآن الكريم، فهو آية من أكرم الآيات

جبريل: إن هؤلاء هم خطباء الفتنة الذين يوقدون نيران الحروب و الفتن و الاقتتال المفضي إلى إهدار النفوس.

3- مقصد حفظ النسل أو النسب :

و يفهم من رؤية النبي ﷺ لفئة من الناس أمامهم لحم طيب و يتركونه ليتناولوا لحما خبيثا، وقد قيل له إنهم الزناة الذين يتركون ما أحل الله لهم من أزواج و يتتغون وراء ذلك ما حرمه الله

و لا شك أن في تحريم الزنا حفظا للنسل و النسب .

4- حفظ العقل : و هو أيضا من المقاصد الكلية العظيمة ولهذا جيئَ إلى النبي ﷺ بإناء فيه خمر وإناء فيه لبن، فاختر اللبن الذي يمثل الفطرة، ولو اختار الخمر لكان في ذلك إهدارا للعقول.

5- حفظ العرض: و قد رأى النبي ﷺ كذلك أقواما لهم أظفار من حديد و نحاس يخدشون بها الجلود، و لما سأل جبريل عنهم، قال جبريل هؤلاء الذين يغتابون و ينتهكون أعراض الناس .

2- بتلاوات و ترطيب اللسان بقراءة آياته.

3- بفهمه و تدبره

4- بالعمل به و الوقوف عند حدوده.

المعنى الرابع :

في المرائي التي أريها النبي ﷺ إشارة إلى مقاصد هذه الشريعة الغراء التي جاء بها و هي المقاصد التي قيل إنها مراعاة في كل ملة، و محمية في كل شريعة سماوية .

1- وهي مقصد حفظ الدين : و لما كانت الصلاة أعظم شعائر الدين مثل بها لهذا المقصد ففرضت ليلة المعراج في السموات العلى دلالة على علو منزلتها و رفعة مكانتها، و رأى النبي ﷺ قوما ترسخ رؤوسهم بالحجارة و حين سأل عنهم قيل له هؤلاء المتثاقلون عن الصلاة، و إنما كانت العقوبة في الرأس لأنه هو مركز الشبهة عند كل من يتهاون في الصلاة .

2- و مقصد حفظ الأنفس : و يستشف ذلك من خلال رؤية النبي ﷺ لقوم تقرض ألسنتهم بالحديد، و قد قال له

6- حفظ المال : و يؤخذ هذا من رؤيته عليه الصلاة والسلام لأكلة الربا و عقوبتهم على ذلك.

المعنى الخامس:

و في شق صدره الشريف ﷺ إلى أهمية إصلاح القلوب قبل الورود على علام الغيوب، فإنه لا ينفع عنده إلا قلب سليم ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا

مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿الشعراء: ٨٨ - ٨٩.﴾
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ
أَوْ أَتَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧)

و في الحديث الصحيح « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم و لا إلى صوركم و لكن ينظر إلى قلوبكم » رواه مسلم من حديث أبي هريرة .